"إبراهيم وإحياء الله له أربعة من الطير ليريه كيف يحيي الموتى"

قال تعالى في سورة البقرة (وإذا قال إبراهيم أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن، قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم أجعل على كل جبل منهم جزءا ثم أدعهن يأتينك سعيا وأعلم أن الله عزيز حكيم) . قال جمهور المفسرين إن إبراهيم عليه السلام طلب من ربه أن يطلعه على كيفية إحياء الموتى فأمره تعالى أن يأخذ أربعة من الطير فيصرهن أي قطعهن أجزاء يفرقها على عدة جبال ثم يدعوهن إليه فيأتينه سعيا وترجع إليهن الحياة كما كانت بل الصر والتقطيع، وإنما طلب إبراهيم ذلك ليطمئن قلبه بمشاهدة ذلك عيانا.

وقال أبو مسلم رحمة الله تعالى (إن إبراهيم لما طلب أن يريه كيف يحيي الموتى أراه مثالا لذلك فأمره أن يأخذ أربعة من الطير ويصرهن إليه أي يضمهن ويميلهن إليه ويؤنسهن به ويعودهن عليه ويمرنهن على إجابته بحيث إذا دعاهن أتين إليه. فإذا صرن كذلك جعل على كل جبل منهن جزءا أي واحدا من الأربعة وهي أحياء بلا تقطيع ثم يدعهن يأتين إليه سعيا. والغرض من لك أن يريه الله مثلا محسوسا على عودة الأرواح إلى أجسادها ولا يصح أن يكون المراد من قوله (فصرهن) أي قطعهن كما قال المفسرون لوجوه، الأول أن المشهور في اللغة في قوله (فصرهن) أي أملهن، وأما القطيع والذبح فليس من الآية ما يدل عليه فيكون إدراجه في الآية إلحافا وزيادة بلا دليل (والثاني) لو كان المراد بصرهن قطعهن لم يقل (إليك) فإن ذلك لا يتعدى بإلى وإنما يتعدى بهذا الحرف إذا كان بعض لألا ماله لا بمعنى التقطيع (الثالث) أن الضمير في قوه (ثم أدعهن) عائد إليها لا إلى أجزائها وإذا كانت الأجزاء متفرقة متفاصلة وكان الموضوع على كل جبل بعض تلك الأجزاء يلزم أن يكون الضمير عائدا إلى تلك الأجزاء لا إليها وهو خلاف الظاهر. وأيضا الضمير في قوله (يأتينك سعيا) عائدا إلها لا إلى أجزائها وعلى قولكم إذا سعى بعض الأجزاء إلى بعض كان الضمير قي قوله (يأتينك) عائدا إلى أجزائها لا إليها) انتهى.

وقد استحسن الأستاذ الإمام تفسيرا أبي مسلم وحبذه كثيرا ودفع عنه ما أورد، بعض المفسرين عليه من الاعتراضات وقال إن هذا التفسير هو المتبادر من الآية وهو الذي يجلي الحقيقة في هذه المسألة فإن كيفية الأحياء هي عين كيفية والتكوين في الابتداء وإنما يكون يتعلق إرادة الله تعالى بالشيء المعبر عنه بكلمة التكوين (كن) فلا يمكن أن يصل البشر إلى كيفية له إلا إذا أمكن الوقوف على كنه إرادة الله تعالى وكيفية تعلقها بالأشياء وهذا غير ممكن للبشر) انتهى.

"ما أفهمه في لك وأدلتي عليه"

وإنني أرى أن ذلك بعيد وإن المراد من سؤاله عن إحياء الموتى هنا إنما هو إحياء الأمة الميتة بالكفر والشرك والضلالة والتفرقة والتجزئة والانحلال كالأمة التي أرسل إليها إبراهيم عليه السلام وإن إحيائها يكون بجمع شتاتها ولم شملها وضم أجزائها المتفرقة بعضها إلى بعض، لأن التفرقة والانحلال موت، والإتحاد والاعتصام بحبل الله هو الحياة فإبراهيم إنما سأل ربه أن يريه ويعلمه كيف يحيي هذه الأمة المتفرقة التي أرسله الله إليها وكيف يجمع شتاتها فعلمه الله ذلك بأن يتجنب إلى أفرادها بالإحسان إليهم والاجتماع عليهم وأن يضمهم ويميلهم له بحيث يستأنسون به ويحبونه ويأخذون عنه، ويمتثلون أمره ونصيحته ويتبعون تعليمه وهدايته، وضرب له على ذلك مثلا محسوسا مشاهدا بالعيان لكل إنسان وهو إنه إذا عود الحيوان الأعجم الشديد النفور كالطير على الائتلاف به بإطعامه والإحسان إليه مع أنه أشد الحيوانات نفورا منه فإنه يأتلف به ويصبح طوع أمره بحيث لو جعل على كل جبل منهم واحدا ثم داهم يأتونه سعيا.

والمقصود من ذلك أن الله تعالى يريد أن يعم إبراهيم وغيره وجميع الأنبياء بعده كيف يجمعون شتات الأمم، وكيف يحبونها بالإيمان وصالح الأعمال، وبالاعتصام بحبل الله وامتثال أمره بضرب هذا المثل الذي تجمع فيه الطيور

الشديدة النفور أي إذا كانت الطيور النفورة المتفرقة في الجبال تأتي إليك سعيا متى طلبتها بسبب تأليفك لها وإحسانك عليها فما بالك بالإنسان الألوف أسير الفضل والإحسان الذي هو معك وبين يديك في كل وقت وآن، فإنه من باب أولى يأتي إليك ويطيع أمرك ونهيك، ويقبل نصيحتك ويجيبك في دعوته إلى الله وإلى امتثال أمره.

والمقصود من ذلك أيضا أن يبين الله تعالى لإبراهيم وغيره أن مجرد الدعوة إلى الله تعالى بدون أن تكون مصحوبة بالتحبب إلى الناس وتأليفهم والإحسان إليهم لا تكون ناجحة ولذلك فإن نجاح الأنبياء في ذلك كان يتفاوت حسب تفاوتهم في هذا المعنى.

والدليل على أن المقصود من هذه الآية هو ما قلناه دون ما قاله المفسرون هو:-

١. أن الإحياء بالمعنى الذي ذكرناه هو وظيفة الأنبياء التي أرسلوا لأجلها فأراد تعالى أن يعلمهم كيف يسيرون في وظيفتهم هذه وكيف يمكنهم أن ينجحوا فيها. أما إحياء أجساد الموتى فليست من وظيفتهم.

يسألوا الله تعالى عن كيفية حصولها، فيكون هذا فضلا منهم ولا يليق بمثل إبراهيم وغيره من الأنبياء أن يسألوا الله تعالى عن الأمور التي اختص بها وهم أعلم الناس به وبخصوصياته.

٢. قوله تعالى (ليطمئن قلبي) أي لأطمئن على تمكني من السير في وظيفتي وأداء رسالتي بمعرفة الطريق الموصلة إليها. أما إحياء الأجسام الحقيقي فلا معنى للاطمئنان على كيفية حصوله ما دام مؤمنا بنفس حصوله وحيث أنه إنما سأل عن كيفية الإحياء لا عن الإحياء بنفسه فالسؤال عن الكيفية التي يريد أن يطمئن بمعرفتها إنما تناسب الأحياء بالمعنى الذي ذكرناه لا الإحياء الجسماني.

٣. لو أردنا الإحياء الجسماني لما صح انطباق الآية عليه ولما كان الله قد أجاب إبراهيم على طلبه لأن إبراهيم لم يرد أصلا ولم يشاهد أبدا كيف أحيا الله هذه الطيور في الجبال وهي بعيدة، وإنما رأى الطيور قد أتت إليه من الجبال وهي حية. ولكن لو فسرنا الإحياء بما قلناه، ويكون إبراهيم قد شاهده بالفعل ويكون الله قد أجابه على طلبه بالفعل وبهذا تسقط جميع الإشكالات، وتنحل جميع الاضطرابات التي اضطربها المفسرون خصوصا في تفسير معنى الاطمئنان على كيفية الإحياء الجسماني فإنهم ذكروا فيه ما يزيد على أثنى عشر قولا،لا يوجد فيها ما يحل الإشكال أو يطمئن إليه الوجدان والبال، وما ذلك كله إلا لأجل كونهم وقفوا في تفسير إحياء الموتى في هذه الآية عند الإحياء الجسماني ولو أنهم تزحزحوا عنه قليلا، وتأملوا في هذه الآية تأملا دقيقا لما وقعوا في الإشكالات والاضطرابات التي وقعوا فيها، ولم يخرجوا منها لحد الآن، ولن يخرجوا منها إلا بالتفسير الذي ذكرناه والعبير بلفظ (جزء) في قوله واجعل على كل جبل منهن جزءا مع أن الواحد من الأربعة إنما هو فرد لا جزء إشارة إلى أن الأفراد بعد ائتلافهم يكونوا كأنهم فرد واحد وإشارة أيضا إلى أن أفراد الأمة يجب أن يكونوا كجزء واحد. على أن الواحد من الأربعة هو جزء منها أيضا.

٤. إن تعبير الله تعال في آخر هذه الآية بقوله (واعلم أن الله عزيز حكيم) إنما يناسب الإحياء بالمعنى الذي قلناه من أنه إحياء الأمة باتحادها وجمع شتاتها لأن في ذلك عزة الأمة وحكمة لله بالغة. ولكن إذا قلنا أن الإحياء في الآية إحياء جسماني فهذا إنما يناسب أن يقول الله (واعلم أن الله على كل شيء قدير) لأن القوة والقدرة تلزم للإحياء الجسماني أكثر مما تلزم له العزة والحكمة كما أن اتحاد الأمة فيه من العزة والحكمة ما لا يخفى على المتدبر المتأمل هذا ما أراه أقرب لمعنى هذا الآية الحكمة والله أعلم بمراده.